﴿ ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٣﴾ ﴾

﴿ ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ ﴾: هذا استفهام تقريري لاستشارة عقول المنكرين للبعث. ﴿ ءَأَنتُمۡ ﴾ والجواب معروفٌ سلفاً، فقد قال الله ﷻ: ﴿ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧]، فالله تعالى ينعى على هؤلاء المنكرين للبعث، والمستبعدين له بقولهم ﴿ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴾ [يس:٧٨] بأن الذي خلق السموات السبع الشداد قادر على أن يعيد خلقهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ ﴾ [الروم٢٧]، ففي هذا إقامة لحجة عقلية، حسية، على هؤلاء المنكرين للبعث. قال: ﴿ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُم ﴾ [يس: ٨١]. ثم إنه سبحانه وتعالى بين كيفية خلق السماء فقال: ﴿ بَنَىٰهَا ﴾، على الصفة التي جاءت الآيات بعدها مفسرة لها، ومعنى بناها: أي شيدها وأقامها .

﴿ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ ﴾: ومرجع الضمير إلى السماء، والمراد بالسمك: الارتفاع. وقيل إن السمك المقصود به السقف، فما بين السماء والأرض مسافة هائلة طويلة. ومعنى سواها: أي جعلها معتدلة الأرجاء، واسعة الفناء، لا فطور فيها، ولا تفاوت. والناظر في هذه السماء يسرح طرفه في أرجائها، ويعجب من دقة خلقها، ومتانته، لا يجد فيها أدنى ثقب، كما قال تعالى: ﴿ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾ ﴾ [الملك٣] يعني من شقوق وصدوع ﴿ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴿٤﴾ ﴾ [الملك٤]، فيكِلُّ الطرف عن العثور على مقدار ثقب إبرة في هذه السماء المحكمة ذات الحبك . فيا لها من آية عظيمة! ولهذا ندب الله المؤمنين إلى التفكر فيها، فقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ

رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ ﴾ [الغاشية: ١٨]، وهذا من طرائق القرآن في بناء العقيدة، وهو توجيه العقول والأنظار إلى مظاهر الربوبية ؛ ليحصل توحيد الألوهية .

﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ ﴾: مرجع الضمير إلى أقرب مذكور وهو السماء. ومعنى ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ﴾: أي جعل ليل السماء مظلماً. فمعنى أغطش أي أظلم. ومعنى ﴿ وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ ﴾: أي أظهر ضحاها بنور الشمس، فالشمس إذا بدت في السماء بان الضحى، وأسفر المكان، وإذا احتجبت الشمس عن هذه السماء عادت الظلماء. وهي دورة متكررة في اليوم والليلة. كما قال تعالى: ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ﴾ [الزمر: ٥]، وفي تعاقب الليل والنهار حكم بالغة، يطول المقام بذكرها، لا تقوم حياة الآدميين والحيوان والنبات إلا بها، فلو اختل ذلك النظام لحصل اضطراب في الحياة البشرية؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [القصص:٧١-٧٢]، فحياة الإنسان، وحياة الحيوان، وحياة النبات، تتأثر بتعاقب الليل والنهار كما هو معروف، وكما كشفت عنه العلوم الحديثة، بأوضح ما يكون. ويحسن أن يكون لطالب العلم نوع اطلاع على العلوم الحديثة في الفلك، وفي الفيزياء، وفي علم وظائف الأعضاء، وفي علم النبات، وفي مختلف العلوم الحديثة؛ لأنها تزيد المؤمن إيماناً، وإن كانت لا تزيد الكافرين إلا ضلالاً، كما قال ربنا ﷻ: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس:١٠١]، فالمؤمن، صاحب القلب المفتوح تزيده هذه المكتشفات، وهذه الحقائق العلمية إيماناً بقدرة الله ﷻ، وكمال ربوبيته. وقد ألف بعض الملحدين الشيوعين قبل نحو خمسين سنة كتاباً سماه " الإنسان يقوم وحده "، يريد أن يقرر أن

الإنسان مستغن بنفسه، وأنه ليس بحاجة إلى إله، فألف أحد الغربين كتاباً يرد به عليه بعنوان " الإنسان لا يقوم وحده ". وهذا المؤلف رجل من النصارى، لكن عنده إيمان بالربوبية، واعتضد بالعلوم ، والكشوف العلمية الحديثة، على بيان حاجة الإنسان إلى الرب، وترجمه بعض المع رِّبين باسم " العلم يدعو إلى الإيمان ". وهو كتاب مفيد؛ لأنه يوقف المؤمن، ويوقف طالب العلم، على حقائق مذهلة من خلق الله ﷻ، وحكمته، ودقيق صنعه، وتدبيره في الأنفس، وفي الآفاق، مما يزيد المؤمن إيماناً.

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾: معنى﴿دَحَىٰهَآ﴾ أي بسطها، وقيل حرثها، وشقها. وها هنا إشكال مشهور، وهو ما يتعلق بترتيب خلق السموات والأرض، فالله سبحانه وتعالى يقول في سورة فصلت:﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾[فصلت9-10] ثم قال:﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ﴾ [فصلت: 11-12] ، فهذا الترتيب يدل على أن الله سبحانه وتعالى خلق الأرض، ثم خلق السماء ، والذي بين أيدينا ها هنا، أن الله سبحانه وتعالى ابتدأ بذكر السماء فقال:﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾، فجعل ذكر الأرض بعد ذكر السماء، وهذا في ظاهره مخالف لما في سورة (فصلت)! ولأجل هذا الإشكال سلك بعض المفسرين مسالك فيها نوع تكلف، فمنهم من قال إن معنى قوله:﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي قبل ذلك، ولاتخفى شدة التأويل في هذا؛ بأن يقلب اللفظ إلى ضده ، ولو شاء الله لقال (قبل ذلك) . وقال بعضهم، ويروى هذا عن مجاهد ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي مع ذلك، فجعل" بعد" بمعنى " مع"! ولكن الجواب عن هذا

هو ما قاله حبر هذه الأمة، وترجمان القرآن، عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما: أن الخلق غير الدحو ، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى خلق الأرض أولاً، ولم يدحها ، ثم استوي إلى السماء فخلقها، وسواها ، ثم بعد ذلك دحا الأرض [1]. فيكون سبحانه خلق الأرض في يومين كما أخبر في سورة فصلت ، لكنه خلقها في يومين من غير دحو ، ثم بعد ذلك استو ى إلى السماء فخلقها وسواها كما أخبر، ثم دحا الأرض بعد ذلك. وبذلك يزول الإشكال .

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾: وهذا يدل على أن معنى﴿دَحَىٰهَآ﴾ أي شقها، وبسطها، فكأن هذه العملية تمت بعد خلق السماء، وهو إخراج مائها؛ بأن جعلها تتفجر ينابيع، ويجرى فيها الماء من الأنهار. وأخرج هذه النباتات الهائلة، التي تملأ الغابات، والبساتين. والمرعى. اسم لمكان الكلأ والعشب، ومرجع الضمير إلى الأرض .

﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾: لما ذكر السماء، وذكر الأرض، ذكر الجبال. والله تعالى يقرن هذه المخلوقات العظيمة في غير ما موضع. فالله تعالى قال ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ [الأحزاب٧٢]، وقال﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية:١٧-٢٠] ومعنى﴿أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ أي أثبتها، وقررها في الأرض؛ حتى لا تميد، ولا تضطرب، كما قال في آية أخرى ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] أي لئلا تميد بكم. والجبال في الحقيقة خلق عجيب؛ إذا رأى الإنسان الجبال الضخمة، الهائلة، الشاهقة، وقف متصاغراً أمام قدرة الله ﷻ، يرى هذا الخلق الهائل، العظيم، الذي يشق أجواز الفضاء بثقله، وصلابته، فيدرك ضآلة خلقه أمامه .

---

[1] تفسير الطبري (92/24).

﴿مَتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٣﴾﴾: هذه هي الحكمة من المظاهر الكونية التي ذكرت. ومعنى ﴿مَتَٰعًا﴾أي متعة، ومنفعة، وسخرة. فربنا، ﷻ، سخر لنا ما في السموات وما في الأرض، وأسبغ علينا نعمه ظاهرة، وباطنة. ﴿ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴾ والأنعام هي الإبل، والبقر، والغنم. وهذه الأصناف الثلاثة أكثر ما يلابس الناس؛ لعظيم منفعتها لهم؛ من حيث الركوب، والأكل، والحلب، ونحو ذلك ، فالحاجة إليها ماسة. ولهذا تعلقت بها أحكام الزكاة دون غيرها من المخلوقات والبهائم .

وهذه الآيات في الواقع تكشف لنا عن طريقة القرآن العظيمة، البديعة، في ذكر ملكوت السموات والأرض، وتوظيف ذلك في تقرير الإيمان بالله، ﷻ، وترتيبه لما بعده؛ فكما أن الله ﷻ ذكر تلك الآيات في سورة النبأ، ثم عقب عليها بذكر البعث، وما يحصل يوم القيامة، صنع سبحانه وتعالى ذلك في هذه السورة فقال: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴾، انظر هذه النقلة! بعد أن ملء قلوبهم، وأبصارهم، بهذه الصور، والمعاني، صاروا الآن مهيئين لإلقاء الحجة الثقيلة عليهم، الراحضة لإنكارهم البعث. إذاً هذا الخلق البديع، لم يخلقه الله عبثاً، ولن يذهب سدىً، خلق السموات والأرض بالحق، وتمام الحق بالفصل الثاني الذي يقع بعد الطامة الكبرى، فإن أفعاله سبحانه كلها معللة محكمة .

الفوائد المستنبطة :

الفائدة الأولى: بيان دليل من دلائل البعث، والرد على المنكرين، وذلك في قوله تعالى:

﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾، فإذا كان الله، سبحانه وتعالى، خلق السموات والأرض على عظمهما، فمن باب أولى، وأحرى أن يعيد خلق الإنسان .

الفائدة الثانية: الاستدلال على الأخف بالأشد، وذلك في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾.

الفائدة الثالثة: بديع خلق السموات والأرض .

الفائدة الرابعة: تسخير الله للمخلوقات؛ متاعاً لبني آدم، كما قال الله تعالى: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

الفائدة الخامسة: أن الأصل في الأشياء الإباحة والحل .